نص في المكان

القنطرة عالم يفصل بين برزخين

عباس خلف علي

تراءت لي عند باب العروة، القنطرة التي اثير اللبس حول انتزاعها من الضريح لتكون معبراً على النهر.
هذه القنطرة ظل شكلها النازح من مسافات قصية فصلاً من حكاية قديمة / حديثة لم يعزل الزمن فيها اللب عن القشور، غامضة، وان ازيل ركامها المبعثر بعد ان انهدت كلياً وإلى الابد عن الانظار صورتها، اعمدتها الحديدية، ركائزها الكونكريتية، الاسطوانات المخروطية القصيرة ذات الالوان اللاصفة الممتدة على جانبي القنطرة فوق النهر، فان عين الراصد لن تتوقف ولو لحظة عن طرح الاسئلة حول الشكوك التي زرعها السلطان بفطنته الهمروسية.
صحيح ان النظر بعين الخيال يكتنز طاقته من الحلم، حينما يمتد بافقه إلى مديات بعيدة، وعلى مساحة هذه الرؤى يراقب الحالم عشرات الصور وهي تخرج تواً من مخابئها السرية في دأب واحد لتعريف ذاتها بدون رتوش.
عند هذه اللحظة تستدركني - القنطرة - وهي تجدد اتصالها بعد غيابها عن النهر الذي اطلقت جناحيها على ضفتيه حيناً من الدهر لتعود الحكاية من جديد، تستفيق من الحلم حتى تأخذ حيزاً من تداعيات الاسئلة السابقة تخطيطاً لمحاولة قادمة تضيء في الاقل شيئاً من مسالك الظنون التي تخصبت ونضجت بفعل - حكاية الباب-.
تحاول التصورات ان تشف: ان كان الباب مكمن التماهي في لغة الناس بين الشك واليقين، حقيقة ام وهماً.
جارتنا قالت لأمي، انها تتأهب لايفاء نذرها وتأتي بـ (خبز العباس) قبل طلوع الشمس (اذ تقصد - القنطرة) - في الهزع الاخير من الليل، مسرى الظلام، تحمل في ثناياها رغبة مجللة بالثواب لعل وحشة الطريق وفزاعة تشعباته التي لا يعلمها إلا الله مناسبة طيبة لتعويض المشقة بالاجر).
واخرى حطت الرحال إلى جوار - باب العروة - كنت ألاحظها كيف تمددت على الفور بمحاذاة الباب واسندت رأسها بلا شعور إلى حافة طلائه المعدني بعد ان تنفست الصعداء من اشواط الظهيرة اللاهبة، كان هواء الرواق يهب برودة منعشة يمكن ان يكون اكثر ذوقاً وطعماً ان استلقت على نعومة سريانه الهادئ ولو باغفاء قصيرة، تتوسدها من عناء قد لا ينتحر عند ابواب جسدها النحيف الضامر ابداً.
فالقنطرة وباب العروة والعلقمي والراية والدرع والقلنسوة كلها (محاور للذاكرة في مشهد المدينة الدامي) لم تبدأ بالقنطرة ولا تنتهي بباب العروة وانما تمتد فواصلها في احداث قائمة واخرى لم تزل في طور الاعداد وربما يأتي دورها من غير ان نتوقعه.
مثلما لم اتوقع في يوم من الايام ان تصبح هذه المرأة جدتي بعد ذلك (اللقاء - القنطري - ان جاز لي تسميته، لقد كانت حكواتياً من طراز خاص تجيد لغة الهور والبردي واجمات القصب التي جاورت ضفيرتيها حتى المشيب.
زرتها في الحرب عدة مرات.. كل مرة تسألني عن امي ثم تحدثني عن رغبتها الملحة في تكرار رحلة - المشي - وهذه المرة لا تختصرها من القنطرة كما حدث في السابق، اذ تبدأ من ظلال القصب الممتد على الهور نقطة انطلاق لا رجعة فيها، اذا ما تحقق حلمها وخبت اصوات المدافع التي ترسل عناقيد الابادة كل يوم في محرقة الحرث والنسل على حد سواء.
وفي آخر زيارة لها لاحت لي القنطرة من بعيد بملامحها العثمانية وهي تحمل جثمان (جدتي).

سبع القنطرة:

استوقفني قول النفري، اثناء تلك الالتفاتة المتأخرة إلى باب العروة.. حين خاطب اقرانه بصورة وكلمات من شأنها تقريب رؤيته اليهم.. وإلا ماذا تعني تلك الصور الباهرة في سفر يوحنا وبلقيس وسبأ ويعقوب والجب، ألم تكن افكارها مورداً حقيقياً للنصوص اللاحقة بعد ان غربلتها النصوص السابقة مئات المرات، إن لملامحها تأثيراً في اذكاء الاسئلة، ومهما توطدت الالفة لمعالمها تظل تلك الاواصر مجرد اغراء المولد والمنتج بجاهزيتها لأن حلولها لا تنتهي مثل حياتنا نجهل مصيرها ولكن وجودنا فيها حقيقة.
كنت اتطلع في تلك المقولة، او التساؤل، سمها ما شئت، وانا اجرب ملاحقتي للقنطرة على طريقة - التاو - الذين يبحثون في فلسفتهم عن الفراغ الذي يصلح للسكن.. يقول باولو كويلو، "كل منا يحتاج إلى تعويذات اخرى اقوى".. ويقول هنري مور، "اقطع من الحجر ما هو ليس فيلا تحصل على ما هو فيل"، واقوال اخرى لم تكتمل دورتها قبل انهاء جولة الرحالة في عكد ابو ادباغ وباب السدرة وباب السور وباب السلالمة وتل الزينبية والعباسية وخان صيهود ومقهى عباس منسى ومقهى دنفش وسيد علي والهيابي، واكتفي بالإصغاء إلى القيم القديم الذي تحدث عن بعض قطع الزمرد المنسوبة للرحالة والمودعة داخل (كشوانية) المخيم، وانصت لثلاث سنين عاشها بين ظهراني الناس يمارس فيها حتى طقوسهم المعتادة واتوقع استعداده لاكثر من ذلك، هكذا تقول السرائر والاسرار، في خاصية المدن جذب صوفي غريب، تستدركها لحظة التجلي انى تكون، وإلا ما الذي جعله يتحمل عبء المشاهد والطقوس الملتهبة في قافلة الذكرى الحسينية وهو يملك - الزمرد - ويعكف جل الوقت على استدراج الملامح المتخفية الآن بظلال المدينة الحديثة، ويضيف القيم ايضاً، ان البلدية تحتفظ له بنسخة نادرة عن مواقع الاماكن واظن انها اول خريطة لجغرافية المدينة مسجلة باسمه ومؤيدة من احد الاعيان المهمين آنذاك السيد كاظم الرشتي صاحب باب - البهائية - المعروف، ولكني فوجئت بعدئذ بأن لا احد يعرف شيئاً عن هذه الخريطة ومحتوياتها الا ملحق مدرسي، ظهر في بداية الخمسينيات من القرن الماضي، يتناول باسهاب سيرة الرحالة الادبية الموزعة بين تحقيق الكتب التاريخية ورحلاته في مدن الاساطير والاحلام القوقازية التي لا يزال السحر يشكل رئتها الحقيقية في تكوين عوالمها على ارض الواقع، وانه طاف في تلك المدن بصفة منقب آثاري متنقلاً بين الاحجار والصخور والمعاقل والحصون باحثاً عن مغاليقها واسرارها دونما تحسب، انه يفتح افاقاً لمرحلة اخرى لاحقة تأخذ عنه التصورات والرؤى التي دونها بشفافية كاتب رحلة وليس منقباً، هذه العوالم اغرته والبسته ثوب الترحال الدائم في مشوار لا تنقطع اسئلته وتتوقف عند عتبات تلك المدن وحدها بل اخذ يخترق الحواجز والاسوار التي كانت في يوم ما عصية على غير اصحاب الطرابيش الحمر اجتيازها، ليحلق نهاية المطاف مترنما بايقاع تخيلات الف ليلة وليلة.
كاني به على اديم العراق الساحر ينقش عبارة السواح والرحالة وكل من شغفته لعبة التجوال: ارض السواد مملكة الحكايات والاساطير لم اشعر فيها باني غريب ووحيد ما دامت ملامحها لا تجهل القادمين اليها.
هذا الرحال، او المنقب، اسمه - بوريس دانتسيغ - اوكراني الاصل، عرف بحبه الشديد وولعه بتتبع الحكايات من منابعها الاصلية، أي من الامكنة التي صارت مهداً لانبعاثها وانعتاقها، ولذا كتب باشياء ملفتة عن اغلب المدن العراقية القديمة والعصرية التي امتازت من وجهة نظره بنكهة خاصة في تعريف طقوسها واساطيرها للآخرين على الرغم من وطأة الاحتلال العثماني الذي استمر لقرون عدة...
قرأت كتابين مستنسخين له - الفن من الشرق إلى الغرب، وحكاية رحال - واحتلتا موقعيهما في ذاكرتي، حيث كانت مفرداتهما تزاحم صور، القباب، المآذن، مشاهد الزيارة، لوحات الطقوس الدينية، ولم يكن التخلص من تأثيرها سهلاً.
-هو لم يؤلف من اجل هذه الرموز كتبا منفردة ومخصصة، وانما لجأت مراجعه إلى دمج ما تذره افلاك الكتابة في الوعي والاحساس والذاكرة، وحتى لا تنفصل وحداتها عن الفكرة الاساسية (لحكاية رحال او الفن من الشرق إلى الغرب)، تجسدت الرؤى في مرايا الخيال ملامح ظاهرة، وبمستطاعة تلك الملامح ان تواصل معي التعرف على لوحتي - سبع القنطرة و-بطل القنطرة - هما لم يكونا بالطبع لوحة غورنيكا او لوحة يوحنا المعمدان، بل انهما ينفردان بميزتيهما البصرية والرؤيوية في حدث المدينة التي استباحها ابن زياد، شكلت هاتان اللوحتان تأثيرهما المضاعف لما جرى في السبى الذي مهد لمحرقة - المخيم - أي انهما يمثلان جزء من تراجيديا الحكايات التي يتقاسم الناس روايتها عن ظهر القلب كلما اذن لهم الظرف بذلك.
تنتصب لوحة سبع القنطرة عند مدخل سوق - الصفارين -، اقدم سوق عرفته المدينة، ظل لوقت متأخر يمثل نشاطاً مهماً لحركتها السياحية والدينية، انه عصب الحرفة المحلية بنقوشها الاسلامية المميزة والمطرزة بجماليات المدينة بمختلف تكويناتها وتشكلاتها، ولذا يحرص الوافدون الجدد على زيارته واقتناء بعض التحف الاثرية المصاغة بهندسة دقيقة وفريدة لمعالم الاسوار والابواب والقباب والحارات، تجتمع كلها بمهارة فنية على قطعة دائرية او مستطيلة من النحاس تملأ حواشيها آيات من الذكر الحكيم.
اما لوحة بطل القنطرة فقد تميزت بالوانها المائية الصارخة لابراز علامات (العلقمى)، نبض في سياق الرسائل التي حملها هذا النهر لزمن طويل، لم تزل حافاته المسكونة بليل الشموع والآس والتمائم تتوهج قبل وبعد ملحمة العطش بحكايات العطش ذاتها.
يلتقطها حدس - رسام الطقوس - في نصف ظلام يتداخل بنصفه الباقي من النهر، بلمسة فنية اخاذة تتماهى فيها الالوان مع بعضها على اللوحة، فتبدو استدارة وجه الحصان بعينيه الشاخصتين صوب القرية التي اخترقها السهم قبل ان يلامس عنقها الغرفة الاخيرة، حائرة في صمت الماء، لعل سؤاله بعد ضربة الفرشاة الاخيرة، يعيد للناس لحظة الاقتراب من حدود النهر، النهر الذي لم اره ولكن اتخيله يتناسل على شفاه حملة - القرب - وهم ينادون بين الحرمين "عطشان يا سبيل" أو "اشرب الماء واذكر عطش...".
ومن امام واجهة - حسينية الهنود - تكون هذه اللوحة مركز انطلاق المواكب باسرابها الطويلة اذ يحتشد حولها الناس بدأب متواصل، يصغون ويتحسسون ايقاع الصنوج والدمام وهي تغلى بوقع سياط الزنجيل على الظهر العاري، مثلما تغلى المشاعر عند نشوب الاحزان لتعيد لحظة اتصالها..
هذه اللحظة هي ذاتها التي تعيد دورتها الآن عبر فواصل حكاية القنطرة، مذ تماهيها بباب العروة، تسأل:

من أي الحكايات نبدأ؟

نقاد عراقيون

فصول ذاتية من سيرة غير ذاتية

علي جواد الطاهر بين الذاتي والموضوعي

(٢-٢)

د. نادية غازي العزاوي

واستحضر الطاهر بعض الأمثلة الدالة على ذلك ، منها بعض مقتطفات من مسرحية شعرية دربهم عليها معلم الرسم في الصف الثالث الأبتدائي (١٩٣٠) ، أورد منها مقاطع مع أسماء الطلاب الممثلين فيها وكأنها جرت في الأمس القريب : (مسرحية شعرية أبطالها : الظبي والنمر والأسد والصياد .
يخرج (ابراهيم محمود جلال) في الساحة فيقرأ :

مِن يدانيني أنا ظبي الفلا
مُفرد بين الصحارى والجبالْ
سار حسني في البرايا مثلاً
وحباني الله أنواع الجمالْ

ويخرج عليه النمر :

أنا النمرُ أنا النمرْ
فأين من يدي تفرْ

ويخرج حيوان آخر وآخر ثم يخرج الأسد متغطرساً :

جميعكم يعنو لي
ويتّقي سبيلي

ثم يفاجئهم الصياد (محمد دفار) :

أنا الصياد ذو الحيلْ
أنا المضروبُ بالمثلْ

ويطلق عليهم ويرديهم قتلى مطروحين أرضاً ، فيصفق التلاميذ مستريحين الى التمثيلية والتمثيل والى الظبي خصوصاً) (ص ٣٥) .
ولكن هذا الانفتاح الفكري الصحي في المدارس جوبه بعد ذلك ببعض ما أدى الى انكساره ، وذلك حين فُرضت على التعليم بعض ضروب (العسكرة) بأوامر من بعض المسؤولين ، ومنهم مدير المعارف- آنذاك - (سامي شوكت) .
هذه التجربة الغريبة القسرية التي تحدث عنها الطاهر حديثاً مشوباً بالألم والسخرية في آن واحد ، كقوله : (وننتهي من الفتوة ..... من عمل كان مضيعة للوقت ..... منذ ثلاث سنوات استجابة لرأي متمكن لسعادة مدير المعارف العام صاحب : (هذه اهدافنا من آمن بها فهو منا) ، ورافع شعار (اخشوشنوا فان الترف يزيل النعم) ، ينشر في مدارس من الفقر المدقع بحيث لم تعرف للشعار معنى) (ص ٩٢) .
ويعود الى الشعار العسكري في موضع آخر -ساخراً -بعد أن رأى رأي العين الوضع المزري للمدرسة القروية التي عين فيها في الشطرة (١٩٤٠) : (فتضحك ضحكاً مُرّاً وتفضل لأول مرة (انعوعموا) بديلاً لـ (اخشوشنوا) ، أن سعادة المدير العام المنعم في بغداد لم يخرج يوماً ليرى ما عليه قومه من ضنك وخشونة عيش ، وشغله شاغل من الترف الذي هو فيه واعلان يكرره أن : (هذه أهدافنا .....فما أهدافك يا صاحب السعادة ان لم تكن مُطّلعاً على معاناة قومك) (ص ١٠١) .
وخصّص مساحة من فصوله لواقع تعليم المرأة في العراق ، وهو واقع أقل ما يقال فيه انه مضيء ومشرف اذا قيس بواقع مجتمع ملتزم جداً بل متزمت ولكنه موار بالتيارات الوطنية والثقافية فكانت المرأة المتعلمة بمستوى المسؤولية التي منحت اياها ، والطاهر لا يتحدث عن هذه التجربة من الخارج فقد اختير للتدريس في احدى المدارس المتوسطة للبنات في الحلة (١٩٤٥- ١٩٤٦) فسجل هذه الشهادة باعتزاز وتثمين :
(والطالبات على حظّ عال من النضج وسعة الأفق والشعور بالمسؤولية والوطنية والجدارة .... ضمن عباءاتهن وما يمكن أن يكون وراء العباءة من نزوع الى السفور .... وفي الأكثر من هذا ما شهدته من نهم في الطالبات الى المطالعة و لابد من الاستجابة فكان تاسيس مكتبة ضمن المكتبة أسميتها (مكتبة المرأة) تزوّد -خصوصاً -بما هو من شأن المرأة وسعة أفقها ، وكان من ذلك - على سبيل المثال -كتابا قاسم أمين : المرأة الجديدة وتحرير المرأة ، .....وسعيت لدى مأمور المكتبة العامة ليخصّص عصراً من أحد الأيام للطالبات ونجح المسعى) (ص ٢٢٤ ، ٢٢٥) .
وممّا يتصل بالشأن الثقافي للبلد امتد حديثه الى بعض المجلات والصحف الأدبية والثقافية المحلية، وربّما تبدو بعض هذه المعلومات اليوم منسيّة أو غير معروفة ، فتكفل ببيانها وذكر اصحاب امتيازها وسنوات ظهورها وأسباب توقفها ، وهي -في الغالب -مجلات ذات خطّ وطني تحريضي ، منها :

- مجلة (الحكمة) لصاحبها الشيخ (رؤوف الجبوري) ، الحلة ١٩٣٦ .
- مجلة (الغد) للشيخ نفسه .
- مجلة (العدل) ، لصاحبها الشيخ عبد الكريم الماشطة .
- مجلة (البطحاء) ، الناصرية ١٩٤٦ .
- مجلة (الرابطة) ، ورئيس تحريرها عبد الفتاح ابراهيم .
- مجلة (عالم الغد) ، ورئيسها د. محمد فاضل الجمالي .
- جريدة (الفرات) لصاحبها الشيخ باقرسماكة .

وعرف قلمه المتشبّع بالجوّ السياسيّ المحتدم في العراق طريقه الى كثير من الصحف والمجلات ، ونشر مقالات موقعة باسمه الصريح أو باسماء مستعارة ومنها (حمدان) ، والاسم ذو دلالة على البعد الثوري ، وقد أسف على عدم عنايته وحفظه لبعض هذه التجارب المبكرة ، ووجه الأسف كونها (المقالات الأولى وفيها بذور ما سيكون فنياً) (ص ٢٣٢) .
ومرّ على التاريخ المبكّر -نسبياً - لتأسيس المكتبات العامة في الاقضية والنواحي في العراق ، وبما يشي بوجود حركة قراءة نشطة وطلب متزايد من القراء ، ورصد في ذلك النشاط الملموس في استيراد الكتب والمجلات الحديثة ، ووقف على مكتبة الحلة العامة -مثلاً -التي تأسّست عام ١٩٣٨ : (ابرز ما هزّني في القراءة كتاب (من حديث الشرق والغرب) لمحمد عوض محمد المطبوع في القاهرة سنة ١٩٣٧ ، وأذكر هذا التاريخ عمداً وقصداً لأنّه يعني أنّه وصل الى المكتبة أيام صدوره ومثله كتب ومجلات كثيرة ونسأل اليوم ما لم يكن يتبادر الى الذهن سؤاله أمس : كيف جمعت هذه الكتب القيّمة ؟ وكيف كان يتمّ الاشتراك بالمجلات القيمة كذلك ؟ ومن كان وراء هذا الاهتمام الحضاري) — (ص ٨٥) .

د - ومن هذا الـ (غير ذاتيّ) المُدرك بعيون ذاتيّة نماذج انسانية رفيعة المستوى وعالية المكانة في الحياة الثقافية العراقية والعربية خصهم الطاهر بملاحظات وانطباعات عنت لهم من واقع تلمذته لبعضهم أو لقائه بهم ، منهم -خاصة - : مصطفى جواد ، العقاد ، سلامة موسى ، طه الراويّ الذي قال عنه : (واني من أستاذي طه الراوي في حضرة قديس ، وكانوا قديماً يسمون الأستاذ اماماً) (ص ١٥٠) .
ولمحمد مهدي البصير أستاذاً ورجل سياسة وعالماً مكانة وجدانيّة خاصة في نفس الطاهر لاتدانيها الاّ مكانة (طه حسين) ولكن الأول كان يتشدّد في المآخذ على الثاني ، ولكن البصير حين بلغه نعي طه حسين تسامى على كل الخلافات العلمية والانسانية كما هو شان الكبار دائماً تسامى الى حيث جلال موقف التأبين وها هو يسجل هذة الشهادة التاريخية : (لقد كنت في حضرته حين وصل خبر الوفاة الى تلفزيون بغداد فخف التلفزيون يحدث عمن يتحدث له عن طه حسين وهداه الهدي الى الدكتور البصير وما سمع الدكتور البصير حتى بلغ منه التأثر أشده وما دُعي للكلام حتى استجاب طائعاً وخرج من بيته -وهو المعتزل -وأنا في صحبته في ليلة عاتية وما جلس على المنصة حتى أعلن عظم المصاب وتحدث عن الفقيد الغالي في فضله ومكانته) (ص ٢٠١) .
وتحدث عن بعض الأعلام الذين يكنّ لمنجزهم تقديراً عالياً بانفعالية واضحة واهتزاز تسلّلت معه ألفاظ (الحب) ، فاذا ذكر -مثلاً -كتاب (تاريخ النقد الأدبي عند العرب) قال عن مؤلفه : (ويغتلي الشوق الى (الحبيب) طه أحمد ابراهيم هذا الجميل الحلو الذي رأينا صورته وضاءة مليحة خلال كتابه السامق السامي) (ص ١٦٩) .
وتصل هذه الانفعالية الى الذروة في حضرة (طه حسين) الذي يتحدث عن آرائه وأسلوبه ومواقفه الشخصية بحب خالص مدخر من أيام الدراسة المتوسطة ، وتشاء الصدف أن يلتقيه أول مرة في مصر في قاعة الجامعة في الحفل التابيني لأربعينيّة (مصطفى عبد الرازق) ، فكانت حصيلة المشاهدة هذه الانطباعات نوردها -كما هي -صورة قلميّة تؤرّخ لاثنين : حضور طه حسين المهيب بالرغم من الآلام المجلّل بها ، والتدفق السيال لقلم الطاهر وهو يلهج باسم (طه حسين) كما يلهج الشعراء المحبون بأسماء حبيباتهم :

(عجيب صوت طه حسين وعجيبة حنجرة طه حسين وعجيب نثره وعجيبة هذه الابيات من شعر الحطيئة يرددها طه منشداً في حفل تأبيني :

والله ما معشرُ لاموا امرءاً جُنُباً
في آل لأي بن شماس بأكياس
لقد مريتكم لو أن درّتكم
يوماً يجيء بها مسحي وابساسي
لما بدا لي منكم غيب إنفسكم
ولم يكن لجراحي منكم آسي
أجمعتُ يأساً مريحاً من نوالكمُ
ولن ترى طارداً للحرّ كالياس

أجل المناسبة أنّ صديقاً يؤبّن صديقاً له ، ولكن في هذا الصديق المؤبّن عيباً كبيراً هو أن موسيقى صوته تأخذ بألباب السامعين فلا يعودون يتابعون المعاني أو يحصرون الأفكار ، فما من شك في أن التأبين يفتح منفذاً لتاريخ فكري ويهيئ سبيلاً الى هموم عاناها ويعانيها الشيخ المؤبّن ولكن القوم بفعل الصوت سكارى وما هم بسكارى ، عجيب وتؤمن أن في العالم العربي -حيث تشتهر حنجرتا أم كلثوم و محمد عبد الوهاب -حنجرة ثالثة هي حنجرة طه حسين ، وقد ألحقت هذه الحنجرة سينية الحطيئة بـ (يا ظالمني) و (يا منية النفس) ، بل انها ألحقت النثر بالشعر وأحلت النثر محل الشعر من الغناء) (ص ١٩٧ ، ١٩٨) .
هـ - ومصدر الطاهر الرئيس في كلّ ما يسرد هنا (ذاكرته) وهي يقظة ترفده بانسيابية ومن غير تلكؤ الاّ في مواضع محدّدة وقليلة بدت فيها الذاكرة حذرة تنبّه -بوحي من الاحساس بالمسؤولية التاريخية -اذ يستدعي الأمر شكاً أو مراجعة ، فليست القضية سرداً لذكريات شخصيّة فحسب ولكنها وقائع يجب تعزيزها بالخبر والمعلومة أو بالنص على المصدر وتوثيقها بالأرقام والسنين .
اسمعه كيف يحترز في رواية هذا الخبر عن تاسيس متوسطة الحلّة : (ولا أدري من أين لي العلم بأنّ بناءها قام على تبرعات الأهالي ، وذُكر الشيخ محمد مهدي البصير بين الساعين الى التبرعات ولا أذكر لذلك تاريخاً وليس لديّ عليه وثيقة) (ص ٥٣) .
وجر الحديث عن بعض مشاهداته في مصر أثناء الدراسة المرور على سلطانة الطرب (منيرة المهديّة) واستدعى حادثة قديمة عن أول مرة طرق سمعه فيها هذا الاسم فلم يستطع الجزم فكانت منه مراجعة ومداولة بين الذاكرة وما يتوفر من وثائق ، وهي مسألة عابرة ليست من وكده -كما يقول أسلافنا -لكنه - وقد وقف عليها -أوجب على نفسه الدقة في ايراد تفصيلاتها كما يفعل تماماً مع المسائل الكبرى :
(تصوير لامرأة وردت - كما في الذهن -في كتاب جرجي زيدان لعله كتابه القيم (تاريخ آداب اللغة العربية) وأرجع اليوم الى الكتاب القيم فلا أجد الصورة ، ولعلّ مرد ذلك تغير الطبعة اذا لم يكن الاختلاف بالكتاب نفسه أو لم يكن الخلل في بنود الذاكرة نفسها ..... وفي الكتاب ما ينص -أو هكذا بقي الأمر في الذاكرة بعد نحو من نصف قرن -على أنها أول امراة عربية وربما قال : مسلمة ، صعدت على خشبة المسرح ، ولعله خص صعودها بالتمثيل أو بالغناء أو بهما معاً) (ص ١١٥) .
يبقى أن ما يؤخذ على هذا الكتاب الممتع المفيد التكرار في مواد بعض الفصول : تكررت بعض الوقائع والأسماء أحياناً بسبب من كونها فصولاً كتبت مستقلة ونشرت متفرقة في صحف ومجلات مختلفة ، مما كان يستلزم تشذيباً ، لاشكّ في أنّ الذي حال دونه المرض الشديد الذي أقعد المؤلف عن العمل في الأشهر الأخيرة من حياته .
رحم الله العلامة علي جواد الطاهر بما قدمت يداه في حياته وبعد مماته.